نقد المتون والأسانيد بعد عصر الصحابة
عوامل ظهور علم النقد وتطوره
المراحل التي مر بها تدوين علم النقد عند المحدثين

كلية العلوم الاسلامية –قسم الحديث استاذة المادة: د.نضال علي حسين

بسم الله الرحمن الرحيم

ما ان ذهب عصر الصحابة تسلم من بعدهم التابعين راية حمل السنة، والحفاظ عليها وازداد اهتمامهم بحفظها وعنايتهم بروايتها ورواتها، وتوثيقها وسلكوا منهج الصحابة في الاحتياط، والثبت في قبول الروايات، وبعد وقوع الفتن في زمن علي بن أبي طالب(رضي الله عنه) وظهور الفرق المختلفة والحركات السياسية اشتدت الحاجة الى نقد الروايات، والرواة خاصة بعد ان تفشى الكذب والوضع، وأخذ الغلاة من كل فرقة بوضع الأحاديث لنصرة مذهبهم وكثرت الروايات والاسانيد فضلا عن ضعف الهمم، وقل الضبط، والاتقان عند بعض الرواة مما سبب وقوع الأخطاء في المتون، والإخلال في سماعها، والتقصير في أدائها، فجعل العلماء يتشددون فلا يقبلون الحديث إلاّ من عرف بضبطه واتقانه فضلا عن اتصافه بالعدالة.

قال ابن عباس(رضي الله عنهما): " إنا كنا مرة إذا سمعنا رجلا يقول: قال رسول الله(صلى الله عليه وسلم)، ابتدرته أبصارنا، وأصغينا إليه بآذاننا، فلما ركب الناس الصعب، والذلول، لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف ".

فاصبح الإسناد أصلا من أصول الدين، ولولاه لقال من شاء ما شاء، فلا يقبلوا رواية المحدث عن النبي(صلى الله عليه وسلم) إلا بذكر الاسناد، وصار الضبط والعدالة ركنان مهمان في نقد الرواة.

قال محمد بن سيرين: لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة، قالوا: سموا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة، فيؤخذ حديثهم وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم.

واستمر الحال فنقدوا الرجال والأسانيد بلا أي تعصب وتقصير، ولم يقبلوا إلا ممن تم ضبطه واتقانه وظهرت عدالته، وردوا كل من لم يتصف بهما ولو كانوا مشهورين في العبادة أو السياسة أو كانوا من أقرباء العلماء أو الأمراء.

ومع اهتمامهم بالاسناد ونقد الرجال الذي هو معيار صدق الحديث، وكذبه كان للتابعين نظرات في متن الحديث وتوثيقه بعيدا عن السند.

من ذلك: عن سعيد بن جبير، قال: سألت ابن عمر(رضي الله عنهما): عن نبيذ الجر، فقال: "حرم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) نبيذ الجر، فأتيت ابن عباس(رضي الله عنهما)، فقلت: ألا تسمع ما يقول ابن عمر؟ قال: وما يقول؟ قلت: قال: حرم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) نبيذ الجر، فقال: صدق ابن عمر، حرم رسول الله(صلى الله عليه وسلم) نبيذ الجر، فقلت: وأي شيء نبيذ الجر؟ فقال: كل شيء يصنع من المدر".

هكذا كان الناقد ينظرون الى المتون كلما احتاجوا الى التثبت، رغم انهم لم يشكوا بعدالة الرواي، وانما خطر ببالهم: ان يكون هناك بعض الانحراف في متن الحديث لخطأ الراوي فأردوا ان يتثبتوا من صحته بالسؤال عنه من عالم آخر.

ثم اتسعت حركة النقد وتتابع عمل المحدثين في نقد الروايات والرواة وجَدُّوا في حفظ السنن والرحلة فيها، والتفتيش عنها والتفقه فيها، وكان النقد ينقل مشافهة ثم جرى تدوينه مختلطا بكتب الرواية ثم ظهر الكثير من أئمة المحدثين كتبوا ما تحملوه، وحرروا ما حفظوه، واصبح عندهم رصيد ضخم من السنة، كما تعددت عندهم أسانيدها، واختلفت طرق روايتها، وقد أكسبهم كل ذلك خبرة تامة في نقد المتون وبصيرة ناقدة في أحوال الرواة وإنتقاء الرجال، والتفتيش عن الضعفاء، والبحث عن أسباب النقل، وأطلقوا على المتروكين الجرح، وعلى الضعفاء القدح، وتخصص بعضهم بهذا الجانب منهم مالك والثوري وشعبة، ومن بعدهم ابن المبارك ويحيى القطان، ومن بعدهم ابن معين، وعلي بن المديني، واحمد بن حنبل.

وكانت كتبهم تدور حول نقد الحديث سندا ومتناً، ونقل عنهم اقوال تدل بوضوح علي أهمية هذا المنهج، ورفضهم لكثير من الرواة كان يعود الى إهتمامهم بالمتن بالدرجه الاولى.

قال الربيع ابن خثيم: " إن من الحديث حديثاً له ضوء كضوء النهار، نعرفه به، وإن من الحديث حديثاً له ظلمة كظلمة الليل نعرفه بها".

وقال الأوزاعي: "كنا نسمع الحديث فنعرضه على أصحابنا، كما نعرض الدرهم الزائف فما عرفوا منه أخذنا، وما أنكروا منه تركنا".

ولما سمع عروة بن الزبير الحديث الذي يروى في الصخرة" انها عرش الله الأدنى" أنكر ذلك وقال: سبحان الله يقول الله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ﴾ وتكون الصخرة عرشه الأدنى؟.

ولما كثر الرواة وطالت الأسانيد وكثرت الروايات، جعل العلماء يقعدون القواعد لمعرفة صحيح الأحاديث من سقيمها ومعروفها من منكرها ومقبولها من مردودها، ولمعرفة ثقات الرواة وحفاظهم من ضعفائهم، ولمعرفة سماع الرواة وطرق تحملهم واداءهم، فجمعت تلك القواعد لتصبح علما نافعا سمي **بعلم مصطلح الحديث** والبدء بالتصنيف والتأليف في ذلك العلم، لم يقتصروا فيه على مباحث الاسناد وحده بل اعتنوا بما يتعلق بالمتن غاية العناية لعلمهم ان المتن هو المقصود من هذا العلم، بل هناك تلازماً وترابطاً بين نقد السند ونقد المتن، فما السند إلا طريق للمتن. والغالب على الإسناد المقبول الانتهاء إلى متن صحيح، والغالب على المتن الصحيح أن يرد عن طريق سند صحيح، وقد لا يحصل هذا فيركب الواضعون إسنادا صحيحا على خبر موضوع لا يثير الشبهه في نظرهم بأن يكون كلاما صوابا حكمة أو غيرها، لكن ليس من كلامه(صلى الله عليه وسلم)، فيرده أهل الحديث رغم صحة إسناده وسلامة معناه، ويكون المتن صحيحا بإسناد ضعيف فيرد الإسناد، ويصح المتن إن وجد له طريق آخر صحيح .

ان نقد المتن تابع لنقد السَّند، والمتون التي تُنقد غالبًا هي المتون التي صحَّت اسانيدُها، فنحن إذا تحقَّقنا من صحَّة السَّند واتِّصاله وخلوِّه من آفاته نأتي بعد ذلك لنقد المتن؛ ذلك أنَّ الأسانيد الضَّعيفة لا نحتاج فيها إلى نقد المتن؛ لأنَّ الحديث أصلا لا يصحُّ إسناده إلى رسول الله(صلى الله عليه وسلم)، فضعف السَّند يلغي الحديث من بداية البحث، فمتى ما اكتشفنا خللًا في السَّند لم نتعب أنفسنا في المضيِّ في البحث عن علل في متنه. والناظر الى تعريف مصطلح الحديث والذي بقواعده يعرف الصحيح من الحديث السقيم، ويتميز به المقبول من المردود، وإلى

بيان شروط الحديث الصحيح يجد مدى اهتمام المحدثين بالسند والمتن معا، فمعرفة الضبط، وهو لا يتحقق الاّ بمقارنة متون مروياته مع متون الثقات من الرواة، فان وافقهم غالبا عرفنا إنه ضابط وان خالفهم عرفنا انه غير ضابط.

وشروط الحديث الصحيح: ثلاثة منها للسند(اتصال السند، وعدالة الرواة ، والضبط) واثنان للمتن(انتفاء الشذوذ، وانتفاء العلة).

والشذوذ: قد يقع بالسند وقد يقع بالمتن وكذلك العلة قد تقع بالسند وقد تقع بالمتن.

ويعرف الشذوذ هو مخالفة الثقة من هو أوثق منه بمقارنة المتن الذي رواه بمتن الرواة الثقات، قد يصح السند ولا يصح المتن لشذوذ أو علة وقد يصح المتن ولا يصح السند لورود دلائل على صحة المتن من طرق اخرى.

هذا وان من مهمات علم الحديث ضبط وتحرير ألفاظ السنة، فهناك علوم تختص بالمتن منها: غريب الحديث ، مختلف الحديث ومشكل الحديث ، الناسخ والمنسوخ

وهناك الكثير من المباحث التي تدل على اهتمام المحدثين بالمتن كما اهتموا بالسند يضيق الوقت لذكرها.

عوامل ظهور علم النقد وتطوره

١- الغيرة على الدين، والحرص على صيانة السنة من التحريف والتغيير باعتبارها المصدر الثاني من مصادر التشريع، وفيها الحلال والحرام وهذا يفسر لنا تشدد الصحابة واحتياطهم في قبول الرواية.

٢- ظهور الفتن، وذهاب الناس إلى الابتداع ، واستحلال الكذب، ووضع الاحاديث وخاصة في آواخر عصر التابعين وما بعده.

٣- ضعف ملكة الحفظ عند الكثيرين مما يحول دون ضبط الرواية الأمر الذي دعا النقاد إلى ضرورة التتبع لنقلة الأخبار وخاصة في بدايات المائة الثانية وما بعدها.

٤- كثرة الرواة ، والمرويات لطول العهد بالرواة من الصحابة، واختلاط السقيم بالصحيح، مما زاد من الحاجة الى تتبع الرواة وسبر، المرويات، من الضروريات اللازمة وخاصة في المائة الثالثة وما بعدها.

المراحل التي مر بها تدوين النقد عند المحدثين

المرحلة الاولى: ابتدأ النقد أقوالاً تقال في حق الرواة ومروياتهم، كتوثيق الرواة أو تضعيفهم أو بيان علل بعض المتون، كبيان ادراج او بيان غريب أو مشكل، وما إلى ذلك من ملاحظات أو تصويبات حديثية، تكتب على هوامش كتب الحديث كالمسانيد والجوامع وغيرها من مصنفات الحديث التي ظهرت ابتداءًا.

المرحلة الثانية: مع مرور الزمن تنامت المعلومات النقدية فخصص بعضهم لها مصنفات مثل كتب السؤالات، دون فيها طلاب الحديث ما يسمعونه من شيوخهم في ذلك فحوت هذه الكتب قدراً كبيرًا من المعلومات التي أمتازت بالدقة والوضوح، مثل: اسئلة الدرامي لابن معين، أسئلة الميموني لأحمد بن حنبل، ورأى بعضهم ان تكتب هذه الملاحظات أو الاستدراكات عقب ذكر الحديث، كالمسند المعلل ليعقوب بن شيبة، العلل للترمذي التي ضمنها كتابه السنن، العلل لابن أبي حاتم الرازي وتمتد هذه الفترة ابتداءًا من منتصف الثاني حتى منتصف الثالث الهجري التي ظهرت فيه كتب الجرح والتعديل وكتب العلل بشكل واضح .

المرحلة الثالثة: افرد بعض النقاد مصنفات بنقد الرواة دون التعرض للروايات أو العكس مثل كتاب الجرح والتعديل، لابن ابي حاتم، وهو كتاب حافل في نقد الرواة، وكتاب العلل لابن أبي حاتم، وهو من أشهر كتب علل الاحاديث ومتونها.

المرحلة الرابعة: لما تجمع للمتاخرين من هذه المادة ما تفيض به الكتب عمد النقاد الى حذف الاسانيد والاكتفاء بالمادة النقدية ذاتها، كما فعل المزي كتابه تهذيب الكمال، والذهبي في كتابه ميزان الاعتدال ، وابن حجر في كتابه تهذيب التهذيب.

للاستزادة راجع

- دراسات في منهج النقد عند المحدَّثين، لمحمد العمري.
- منهج النقد عند المحدَّثين، للأعظمي .
- جهود المُحدِّثين في نقد متن الحديث النبوي الشريف للجوابي.
-منهج المحدثين في نقد متون الاحاديث النبوية، للدكتورة موزة محمد الكور.